مطالع قصائده

المتنبئ يخطف الأضواء ببريق مطالعه القوية النافذة، ومطلع القصيدة كالوجه من الجسم، والعنوان من الكتاب؛ لأنها أول ما يطرق السمع، ويصل إلى القلب، فهو يختار المطلع بعناية، ويجوّد أول القصيدة، حتى صارت مطالعه كالأمثال إشراقًا، واسمع بعض أجزاء لهذه المطالع، ثم بسط القول في ذلك؛ يقول: «**واحرَّ قلباه ممن قَلبُه شَبِمُ**»، ويقول: «**لكلِّ امرئٍ من دَهرِهِ ما تعوَّدا**» ويقول: «**حَشَاشَةُ نفس ودَّعَت يَومَ ودَّعُوا**» ويقول: «**بَادَ هَواكَ صَبرتَ أم لَمْ تَصبِرا**» ويقول: «**لا خَيل عِنْدكَ تَهدِيها ولا مَالُ**» ويقول: «**بِمَ التَّعللُ لا أهلٌ ولا وطنُ**» ويقول: «**نُعِد المشْرَفِيَّةَ والعَوالِي**» ويقول: «**فِراقٌ ومَن فَارقتُ غَيرُ مُذَمَّمِ**» ويقول: «**لا تَعْذُلِ المشْتَاقَ في أَشْوَاقِهِ**» ويقول: «**عَدُّوكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانِ**». إلى آخر تلك المطالع التي تفرض حسنها على بصائر عشاق البيان.

فهو لا يبدأ في قصيدته ضعيفًا، أو متخاذلًا، بل يحتفل بأول كلمة يقولها في قصيدته، ويمنحها من رشاقة عباراته، وحلاوة منطقه، وطلاوة سحره ما يجعل هذا المطلع محفوظًا سائرًا شاردًا.

أراد أن يعاتب سيف الدولة، وأن يتفجع أمامه، وأن يتوجع عنده من حساده، وأن يشكو إليه من خصومه؛ فماذا عسى أن يبدأ به لهذه القصيدة، هل يبدؤها بحكمة؟ لا، هل يبدؤها بغزل؟ لا، بل الأحسن أن يقول في أولها: «**واحرّ قلباه**»

هكذا صارخة قوية متمرّدة، تتقطع معها كبده لوعة وأنينًا، ويتمزق مع آهاتها وزفراتها ما بقي معه من قلب مكلوم، وروح منهكة مضطربة.

ودخل على أمير ليهنيه ويبارك له، فليس للغزل والغرام هناك مقام، وليس للحكمة مناسبة، وإنما بدأ معتذرًا ومتلطفًا ليقول:

لا خَيلَ عِندك تَهْدِيها ولا مالُ   فليسْعَدِ النُّطقُ إن لم تَسْعدِ الحالُ

وهو مطلع فائق بكل معاني الكلمة، آسر بكل مدلول الأسر، غاية في الحسن، وآية في المتعة، حتى صار أنشودة عذبة على شفاه الرواة، ومثلًا شرودًا على ألسنة الحداة. وكأني به يمد صوته بحرف «لا» ثم يرسل البيت ليكون أجمل من الهدية، وأثمن من العطية.

يريد أن يصف هِمَّة سيف الدولة، وعلو قدره، وارتفاع درجته بما حققه من نصر، وحازه من مجد فيبدأ بقوله:

على قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ   وتأتي على قدر الكرامِ المكارمُ
وتعظمُ في عينِ الصغيرِ صغَارها   وتَصغرُ في عينِ العظيمِ العظائمُ

وأنت إذا سمعت هذا البيت وقَرَ في خَلَدِك، واستوى في فؤادك، فسوف تعلم أن الرجل سوف يُحلق بإبداعه في عالم الهمة، وسماء التضحية، ودنيا العظمة، فهو يقدم لك عنوان الكتاب، ومفتاح الباب، ولجام الفرس؛ لتتهيأ لما سوف يبثه من مديح راق، وثناء عبق، وإشادة سامية.

يريد أن يخبرك بحاله بعد الفراق والبعد ونكسة البال، وضيق الصدر وتكالب الأعداء، وقلة النصر؛ فيقذف بهذه العبارات أولًا:

بِمَ التَّعللُ لا أهلٌ ولا وطنُ ... ولا نديمٌ ولا خلٌّ ولا سكنُ

فتفهم أن الرجل محترق بمعاناته، ملتهب بآلامه، تكاد نياط قلبه أن تتقطع، وتوشك أعصابه أن تتمزق، فهو يتساءل متعجبًا من حاله، لماذا يتعلل ويتصبر وليس عنده أهل يأوي إليهم، فيبثهم وجده، ولهيب صدره، وليس لديه وطن؛ لأنه غريب مرتحل، وليس عنده صديق؛ فقد خانه الكل، وتنكر له الجميع، وما عنده محبوب يبثه نجواه، وينفث فيه شكواه، وأيضًا ليس عنده سكن يضمه ويحتضنه، فهو في حالة أبلغ وصف لها هذا البيت، وياله من مطلع ذائع فائق.

ويذهب طريدًا شريدًا إلى كافور، وقد تقطعت به الحبال، وضاقت به الآمال، وأظلمت أمامه السبل، فلا يبدأ بالمدح؛ لأنه في شغل شاغل عنه، ولا يستفتح بالغزل؛ لأنه يتلظى بالمرارة، ولا يقدم الأمثال؛ لأنه في عالم المعاناة والغربة، وإنما يقذف بهذه الحكمة التي تدل على ما ورائها من كرب شديد، وحزن بالغ، وبال كسيف أسيف:

كفى بكَ داءً أن ترى الموتَ شافيًا ... وحَسبُ المنايا أن يكنَّ أمانيا

تمنيتُها لما تمنَّيتُ أنْ ترى ... صديقًا فَأعْيَا أو عدوًّا مداجيًا

يا الله! إلى هذه الدرجة من البلوى يصل هذا العبقري الفذ، إلى درجةٍ يتمنى فيها المنايا الحمر الكوالح، وإلى حدٍّ يرى أن دواءه يكمن في الموت، فإذا وصل الحال إلى هذا المستوى، فحسبك بها بلية كبرى، ومصيبة عظمى، حتى إن شاعرنا فقد كل صديق، ولم يجد حتى عدوّاً مجاملًا، بل كلهم أصبحوا أعداءه؛ لأنه ناجح فحسب، وهم كلهم أعداء النجاح.

أما كافور فيريد مدحه وتبجيله وتفخيم أمره؛ فينفجر بهذا المطلع الذي كأنه إطلالة بدر من سحب، أو إشراقة نجم من حجب، أو طلعة فجر في الآفاق، يقول:

عَدُّوكُ مذمومٌ بكلِّ لسانِ ولو كانَ من أعدائِك القمرانِ

ولله سرٌّ في علاكَ وإنما كلامُ العِدَا ضربٌ من الهذيانِ

هكذا بدأ قصيدته قويًا لامعًا فياضًا، وانظر إلى قوة الأسر، وبراعة الاستهلال، وإشراق الكلمات، وجزالة الجمل، فكأنه يفصل ثوبًا زاهيًا على ممدوحه، أو يضع على هامته تاجًا مرصعًا، فهو يحطم شُبَه أعداء ممدوحه، وينسف أباطيلهم، ويدفع أقوالهم بهذا القول البليغ السار، حتى لما سمع أحد العلماء هذا المطلع المرّار قال: هذا والله هو الشعر.

ولكنه يُحَارَب حتى في مصر، وتضيق به الأرض بما رحبت كما وصف حاله:

غريبٌ من الخلانِ في كلِّ بلدةٍ إذا عظُمَ المطلوبُ قلَّ المساعدُ

ويصل إليه عيد الفطر وهو في مصر، فلا يفرح بالعيد ولا يبهج به، ولا يحتفي به؛ لأنه غريب شريد طريد مكبوت، بل ينفجر ناقمًا غاضبًا باسرًا عابسًا ليقول:

عيدٌ بأيةِ حالٍ عدتَ يا عيدُ بما مضى أم لأمرٍ فيكَ تجديدُ

أما الأحبة فالبيداء دونهمُ فليتَ دونكَ بِيْدًا دونها بيدُ

بهذا المطلع البارع المعبر المصور يبدأ بكاءه، ويستهل عويله، فهو أبدًا غاضب كالليث، جاهم كالليل، ثائر كالبركان، عاصف كالريح، يعلن للمشاهدين كل ساعة تمرده وعنفوانه ورفضه، وهو - دائمًا - معارض، تغلي نفسه بالغصص من زمانه وبني جنسه. إنه عند نفسه مظلوم معتدى عليه مقصود بالإيذاء، تحبك له المؤامرات، وتنسج له العداوات، وتلفه المصائب من كل جانب، ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت.

إنها عقوبة من الله لأعدائه كما يقول:

إِني وإن لمتُ حاسديَّ فما أنكرُ أنِّي عقوبةٌ لهمُ

obeikandl.com